الباب الخامس

١ – مدينة قرطبة كيف كانت قبة الإسلام
في بلاد الأندلس .
٢ – العمران فى قرطبة زمن الإسلام .
٣ – النهضة الثقافية فى قرطبة زمن الإسلام .
٤ – غرناطة سيدة الأندلس
وشعلة الحضارة الإسلامية .
٥ – صمود الإسلام فى الجزائر
كان بفضل جهود علماء الإسلام بها .

مدينة قرطبة
كيف كانت قبة الإسلام
فى بلاد الأندلس

قرطبة مدينة عظيمة أزلية البنيان طيبة الماء والهواء ، أحدقت بها البساتين والأشجار والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب وقد برزت إلى قمة الوجود فى بلاد الأندلس زمن حكم الأمير عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام الأموى الملقب بصقر قريش أول أمراء الدولة الأموية فى بلاد الأندلس ، وهى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم فمنها كان توجيه دفة الأمور وشاركت عواصم العالم المتحضر ذاك الزمان فى السياسة والثقافة والعمارة وجميع مظاهر الحياة الحضارية .

فلقد صارت مستقر الإمارة ثم مركز الخلافة ، وموطن الوزارة وكعبة الشعراء والأدباء ، وموئل أهل العلم ومقصد الطلاب ومورد العلوم والمعارف مما جعلها أعظم مدينة بالأندلس ولم يكن لها فى الغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة الرقعة وظرف اللباس والتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة .

موقع مدينة قرطبة :

تقع هذه المدينة على نهر الوادى الكبير بجبل شقورة ، وهو أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة التى هى إحدى غرائب الأرض فى الصنعة والإحكام ، أما جبل شقورة فهو سلسلة من الجبال الضخمة المغطاة بالغابات

والمراعى ، وبعض النباتات والورود ، ومن المنحدرات والسفوح الشرقية لهذه الجبال ينبع نهر شقورة أو النهر الأبيض الذى يروى مدينة مرسية وأوريوله شرقى أسبانيا ويصب فى البحر الأبيض المتوسط[1] .

كيف تكلم الواصفون عن قرطبة :

١ – يصفها الحجارى وهو أحد علماء الأندلس وقتئذ بقوله (كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الإسلام ومجتمع علماء الأنام الأعلام ، فيها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية وإليها كانت الرحلة فى رواية الشعر والشعراء ، إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء ، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويبارى فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ، ولم تبرح ساحاتها مجرد عوالى ومحط معالى وحمى حقائق ، وهى من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد والزور من الأسد)[2] .

٢ – وقال عنها ابن الشباط (قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن ومستقر الخلافة ودار الإمارة ، كان فيها يعيش الخلفاء من بنى أمية وآثارهم بها ظاهرة وأبنيتهم فيها وفيما جاورها بيِّنة ، كثر بها العلم والعلماء واستقر بها النبلاء والفضلاء ، وصارت دار الهجرة للعلم ومكان الرحلة لأولى الفهم ، وكان من بها من الخلفاء يقيمون هم العلماء ويكبرون من يولونه خطة القضاء ، ويختارون للخطة أهليها ويوفونهم حقوقهم فيها ، فكان للقضاء بها المنزلة العالية والرتبة السامية ، وكان

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية الجزء الرابع الأندلس الإسلامية تأليف الدكتور أحمد شلبى ط الخامسة سنة ١٩٧٩ م مكتبة النهضة المصرية ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) كتاب أقضية رسول الله تأليف الإمام المحدث أبى عبد الله محمد بن فرج المالكى المعروف بابن الطلاع ص ٥١ ط نهضة مصر سنة ١٩٧٨ م .

الخلفاء هناك مقادين لأحكامهم ، وأما الرعية فكانت على قدر كبير من علو الهمة واجتماع الكلمة وتجمعهم على الحقائق واتباعهم لأحسن الطرائق ، فصارت لهم بذلك النجدة والعزة وجازوا أعلى المنازل والرفعة ، وفى قرطبة الجامع المشهور أمره الشائع ذكره من أجمل مصانع الدنيا كبر مساحة وإحكام صناعة ، وجمال هيئة اهتم به الخلفاء من بنى أمية فزادوا فيه زيادة حتى بلغ الغاية فى الإتقان ، واستولى على أمد الإحسان ، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف)[1] .

قرطبة فى السياسة زمن الخليفة عبد الرحمن الملقب بالناصر :

عندما أهل عليها عصر ذلك الحاكم الأموى ازدهرت بلاد الأندلس ونافست قرطبة فى عظمتها عظمة القيروان ، وبغداد والقاهرة ، وبخارى ودمشق وأصبحت قبلة العلماء والشعراء والكتاب والفنانين ، كما جعلها عاصمة لدولة قوية عزيزة الجانب حتى ليمكن أن يقال : إن قرطبة لم تكن فى عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهارًا فى أى وقت مما كانت عليه فى عهد الناصر ، فلقد كانت أشبه ما تكون بالعاصمة الكبرى فى بلاد الأندلس .

وكيف لا يكون ذلك وحاكمها المشار إليه أعلن نفسه أميرًا للمؤمنين وأصدر وثيقة رسمية بذلك فى أوائل ذى الحجة سنة ٣١٦ هجرية ، ومن يومئذ تسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله فكان بهذا الصنيع أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بإمارة المؤمنين ، وبدأت الدعوة بذلك ولمن أتى بعده من بنى مروان .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية الجزء الرابع المرجع السابق .

وغدا أمير المؤمنين القائم فى قرطبة يمثل سلطانه السياسى سلطان المسلمين والإسلام فى الغرب الإسلامى ، فوفدت عليه السفارات الأوروبية تلتمس المفارضة فى شتى الشئون الثقافية والتجارية والسياسية ، وكانت الأبهة والترف تبهران سفراء الدول مما جعلهم يتحدثون بذلك وينقلونه إلى حكام بلادهم[1] .

القوة الحربية لقرطبة :

يذكر العلامة ابن خلدون فى مقدمته أن أسطول الأندلس فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، قد وصل إلى مائتى سفينة أو نحوها وقد أخذ هذا الأسطول الحربى ، يسدد ضرباته إلى ممتلكات الفاطميين فى بلاد المغرب ردا على غارات أساطيلهم ، التى كانت تعيث فسادًا على سواحل الأندلس وعندما تولى الإمارة الخليفة الحكم الأموى أعد أسطولاً من ستمائة سفينة حاصر به حصن القبطة من حصون المرية لما ظهر المجوس على الساحل الشرقى للأندلس وهم قوم من البلاد الإسكندنافية على شىء من التوحش ، لا مدنية لهم يركبون مراكب صغيرة ذات أشرعة سوداء يهجمون على السكان كالجراد ، يقتلون وينهبون ويحرقون المساكن[2] .

الحالة الاقتصادية :

صارت أسبانيا الإسلامية – وليست قرطبة فقط – فى عهد بنى أمية أغنى بقعة فى أوروبا وأكثرها ازدحامًا بالسكان ولذلك اهتمت حكومة قرطبة بالسياسة الإنتاجية اهتمامها بالمسائل السياسية والحربية :

---

(١) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى تأليف الدكتور جوده هلال ومحمد محمود صبح طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر أول نوفمبر سنة ١٩٦٢ م .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية الجزء الرابع المرجع السابق .

١ – فقد عنيت بالزراعة وشقت من أجل ذلك الترع وحفرت القنوات وجلبت إلى الأندلس كثيرًا من الأشجار والثمار التى لم تكن معروفة من قبل فى تلك البلاد مثل الأرز وقصب السكر والكروم ، واشتهرت بذلك مدينة مرسية وفالينيثيا وغرناطة فى أماكن الخصب .

٢ – كما انتعشت الصناعة بعد أن عملت الحكومة على الكشف عن مناجم الذهب والفضة والحديد ، وكثير من المعادن الأخرى واشتهر بذلك من المدن جيان والجرب وباجه ومالقة .

٣ – وعن صناعة الحرير والصوف فقد اشتهرت بها قرطبة ومالقة والمرية .

٤ – أما ورق الكتابة فقد اشتهرت بصناعته مدينة كونيكا .

٥ – واشتهرت مدينة طليطلة وقرطبة بصناعة الأسلحة[١] .

(١) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى . المرجع السابق .

العمران فى قرطبة زمن الإسلام

حالة العمران :

وصلت مدينة قرطبة فى عصورها الزاهية إبان دولة الإسلام فى عدد أرباضها – أى ضواحيها – إلى واحد وعشرين ربضا فى كل ربض منها من المساجد **والأسواق والحمامات** ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره ، وكان يتبعها من خارجها ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منها منبر وفقيه ومقلص – أى لابس القلنسوة – (وهو من تكون له الفتيا فى الأحكام والشرائع وتبصير الناس بأحوالهم وأمور دينهم) وكان لا يسمح للقالص بأداء هذه الوظيفة إلا لمن حفظ موطأ الإمام مالك وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبى ﷺ وحفظ المدونة ، وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويطالعونه بأحوال القرية والرعية[1] .

قصور الحكم والأمراء :

وكان بها عدد من القصور الكبيرة الفخمة لإدارة البلاد أو لسكن حكامها وأمرائها أو للراحة والاستجمام من أشهرها :

(١) كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى الجزء الثانى الباب الرابع الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧ هـ سنة ١٩٤٩ م المكتبة التجارية الكبرى .

أولا – قصر الإمارة :

وهو قصر قديم تداوله الملوك السابقون على الفتح الإسلامى كما اتخذه الأمير عبد الرحمن الداخل مقراً للحكم ومركزا لتصريف شئون الدولة وكان يغلب عليه الطابع اليونانى والرومى والقوطى[1] .

ثانيا – قصر الرصافة :

وقد ابتناه الأمير عبد الرحمن الداخل فى ضاحية الرصافة شمالى قرطبة منحرفة إلى الغرب وجعله لسكناه أكثر أوقاته ، وسمى تلك الضاحية بالرصافة تيمناً باسم رصافة جده هشام بن عبد الملك تلك التى كانت ببلاد الشام .

ثالثا – قصر الدمشق :

وهو قصر شيده بنو أمية وأبدعوا بناءه بالصفاح ويقوم هيكله على أعمدة من الرخام ، وكان ميدان مراحهم وتسليتهم ومضمار أفراحهم حكوا به بعض قصورهم بالمشرق وأطنب الشعراء فى وصفه والتغنى بجماله وحسنه ، وقد أنشد فيه ابن عمار أحد الشعراء الأندلسيين قوله :

كل قصر بعد الدمشـــق يـذم ... فيه طـاب الجنى ولذّ المشم
منظـــر رائـــق ومـــاء نمير ... وثرى عاطـــر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندى ... عنبر أشهب ومسك أحـــم

رابعا – قصر الروضة :

هذا القصر أقامه الأمير عبد الرحمن الناصر على بعض مرتفعات سيرا مورينا الشرقية على نهر الوادى الكبير إلى الشمال الغربى من موضع الزهراء ،

(١) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى تأليف الدكتور جودة هلال ومحمد محمود صبح طبعة أول نوفمبر سنة ١٩٦٢ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

وهى ضاحية من ضواحى قرطبة سماها باسم جارية أثيرة لديه تدعى الزهراء ، لذلك عرف القصر باسم الروضة أو بقصر الزهراء وكان يحوى أربعمائة حجرة عدا الأجنحة التى يأوى إليها آلاف الحراس والعبيد .

وقد أطنب المؤرخون العرب فى وصفه وما كان عليه من فخامة وجمال تثير الدهشة فقد ذكروا أن حيطانه كانت من الرخام السميك ومصفحة بألواح لازورديه تثير الدهشة وأن قراميده كانت من الذهب والفضة وكانت قبابه تقوم على ثلاثمائة وأربعة آلاف عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشًا متساويًا ، وكانت عيون الماء العذب فى ردهاته تنصب وتغيب فى أحواض من الرخام الأبيض مختلفة الأشكال .

وكان من عجائب ذلك القصر بركة بها أوزة من ذهب معلق فى رأسها لؤلؤة كبيرة وصهريج مملوء بالزئبق فإذا أراد الخليفة أن يفزع أحدًا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد حراسه ليحرك الزئبق فيظهر فى المجلس لمعان كلمعان البرق من النور ، فيأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المكان قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك[1] .

خامسا – وكان هناك العديد من القصور الأخرى بقرطبة هى الكامل والمجدد والحائر والمعشوق والمبارك والفارسى والرشيق وقصر السرور والتاج والبديع ، وقد اكتفينا بذكر أسمائها خشية الإطالة لكن مما تجدر الإشارة إليه ذكر قنطرة قرطبة التى على نهرها ، فهى من أعظم آثار الأندلس وأعجبها بناها السمح بن مالك الخولانى ، عندما كان أميرًا للأندلس عصر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، ثم زاد أمراء بنو أمية بعد ذلك فى بنائها وتحسينها مما جعلها إحدى أعاجيب الدنيا فى تلك العصور[2] .

---

(١) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى المرجع السابق .

(٢) كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المرجع السابق .

مساجد قرطبة ومسجدها الجامع :

بلغت مساجد قرطبة فى عددها أيام حكم الأمير عبد الرحمن الداخل أربعمائة وواحد وتسعون مسجدًا[1] أشهرها المسجد الجامع الذى ابتناه المسلمون زمن فتح الأندلس وزاد فى توسعته عبد الرحمن الداخل وفى هذه الزيادة يقول الشاعر وجيه بن محمد البلونى من قصيدة له فى مدحه .

وأنفق فى دين الآله ووجهـــه ثمانين ألفا من لجين وعسجد
توزعهـــا فى مسجد أسَّه التقى ومنهجـــه دين النبى محمـــد

ومات عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هجرية قبل تمامه فأتمه خليفته هشام الأول بن عبد الرحمن الأموى ومن هذا التاريخ أصبح ذلك المسجد موضع اهتمام الخلفاء من بنى أمية ، ومحل رعايتهم هم ومن جاء بعدهم من غير البيت الأموى فقد تناولوه إما بالزيادة والتجديد أو الزخرفة أو النقش حتى بلغ طول المسجد بعد زيادة المنصور بن أبى عامر ثلاثين وثلاثمائة ذراع وأصبح عرضه ثلاثين ومائتى ذراع وبلغت أعمدته التى كانت من الرخام المكسو بالذهب واللازورد ثلاثة وتسعين ومائتين وألف عمود وأما بوائكه فبلغت تسع عشرة من الشرق إلى الغرب وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب وصارت أبوابه واحدًا وعشرين بابًا كسيت بالنحاس الأصفر اللماع الرائع الصنع وكان الباب الأوسط منها مرصعًا بصفائح من الذهب وبأعلاه ثلاث كرات مذهبة تعلوها رمانة من الذهب .

أما حوائط المحراب فكانت مكسوة بالفسيفساء وتجرى فيه الفضة ويذكر المؤرخون عن منبره أنه كان مصنوعًا من العاج ونفيس الأخشاب ويتألف من ست وثلاثين ألف حشوة (وهى القطعة الصغيرة من الخشب)

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية الجزء الرابع المرجع السابق .

سمرت بمسامير من الذهب والفضة كما كانت بعض هذه الحشوات محلاة بالأحجار النفيسة .

وإنارة ذلك المسجد العظيم فى الليل كانت تتم بسبعمائة وأربعة آلاف مصباح ويستنفد فى كل سنة أربعة وعشرين ألف رطل من الزيت وعشرين ومائة رطل من العنبر والند – أى العود – أما مصباح المحراب فكان مصنوعًا من الذهب الخالص .

وعلى خدمة المسجد كان يقوم بها حوالى ثلاثمائة رجل لإيقاد البخور من العنبر والعود وإعداد الزيت العطر لإضاءة عشرة آلاف فتيل للقناديل[1] .

ويذكر المؤرخون أنه كان فى بيت منبره مصحف بخط الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه عليه حلية من ذهب مكللة بالدر والياقوت وعليه أغشية الديباج ، وكان يوضع على كرسى من العود الرطب المسمر بمسامير الذهب[2] .

وقد كان بالمسجد أربع ميضات للوضوء أقامها الأمير الحكم المستنصر بدلاً من ميضأة المسجد القديمة اثنتان كبيرتان للرجال فى جهتيه الشرقية والغربية واثنتان صغيرتان للنساء ، وكان الماء يجرى فيها جميعها من قناة تنساب من سفح جبل قرطبة وتصب ماءها الذى لا ينقطع ليلاً ونهارًا فى أحواض رخامية وفضل ذلك الماء العذب يجرى إلى سقايات اتخذت على أبواب المسجد بجهاته الثلاث : الشرقية والغربية والشمالية إلى ثلاث جواب من الرخام[3] .

(١) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى المرجع السابق .

(٢) كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المرجع السابق .

(٣) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى المرجع السابق .

وأما صومعة المسجد فقد بلغ ارتفاعها ثلاثة وسبعين ذراعًا فى عهد الأمير عبد الرحمن الناصر[1] .

كيف صار المسجد الجامع بعد سقوط قرطبة فى يد النصارى الأسبان :

لقد ظل هذا المسجد كعبة القصاد تهفو إليه القلوب المسلمة ويجذب إليه طلاب العلم والمعرفة ، من الشرق والغرب مسلمين وغير مسلمين لما ذاع ذكره بين الناس ونافس ما عداه من المساجد ، والمدارس فى بغداد والقاهرة وغيرها من البلدان .

حتى إذا ما حلت سنة أربع وثلاثين وستمائة هجرية التى توافق سنة ١٢٣٦ ميلادية سقطت قرطبة فى يد الملك فرديناند الثالث ملك قشتالة من نصارى الشمال فى أسبانيا ، فبدأ فى محو معالم الحضارة الإسلامية فى الأندلس خصوصًا فى مساجدها الجامعة ومنها مسجد قرطبة ، إذ أمر بتحويله إلى كنيسة ، وبناء على ذلك تم إزالة جميع الميضات الخاصة بالوضوء ، وكذا إزالة قباب المسجد القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى ، وحلت محل القباب سقوف مضلعة على الطراز الكنسى ، تزينها من الداخل نقوشٌ نصرانية كما أنشئ على طول جوانب الجامع الأربعة من الداخل هياكل ، ونصب فوقها الصلبان وتماثيل القديسين وصورهم ، وحتى منارة الجامع أزيلت وأقيم على أنقاضها برج الأجراس الحالى على نمط يشبه المنارة ثم أزيلت مقصورة الخليفة فى وسط المسجد ، بسقفها الأندلسى وأقيم مكانها هيكل كبير بمعرفة أسقف قرطبة سنة ١٥٢١ ميلادية ، مما أثار النقد الشديد من علماء الآثار الغربيين من أسبان وغيرهم ، وقد وصفه بعضهم بأنه أشنع عمل همجى ارتكب لتشويهه ولا أدل على ذلك من أن

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى المرجع السابق .

الإمبراطور شارل كان عندما زار الجامع بعد ذلك التغيير ، أبدى سخطه واحتج على إقامة الهيكل النصرانى على هذا النحو فى وسط هذا الفراغ الرائع الذى تبدو فيه ملامح الفن الإسلامى الرفيع وأعلن بأن هذا التشويه للجامع قضى على ما كان أثرًا وحيدًا فى العالم[1] .

وفى كلمة بليغة مؤثرة يستهل بها العلامة الأثرى الأسبانى النصرانى (اما دوردى لويس ديوس) كلامه عن تاريخ المسجد الجامع ، وهى فى الواقع أبلغ رثاء لهذا الأثر الإسلامى العظيم نجتزئ منها هذه الكلمات (إنه لا الأوضاع النصرانية الفخمة التى تقوم اليوم فى وسط هذه العمد التى لا تحصى ، ولا ذخائر الفن التى أغدقه عليها أكابر الفنانين ، الذين أقاموها فى القرن السادس عشر ، ولا تلك السلسلة من المصليات التى حشرت بجدران المسجد وشوهتها ، ولا الصور التى تغطى عقوده فى الجزء المخصص للمحراب ، ولا أولئك الملائكة ولا الكلمات الأنجلية فى هذه العقود ذات البناء المحدث ، يمكن أن تبدد أو تمحى ذرة من جلال هذه الأشباح المتجولة التى تبحث عبثًا فى زاوية المحراب عن ذلك الكتاب المقدس الذى غمست صحفه ، حسبما تقول الرواية المتوارثة بدم عثمان الزكى شهيد الأيمان ، وأنه بالرغم من كل التشويهات التى عملت ، وكل التغييرات التى أحدثت فإنه قد ختم عليها وفقًا لقانون مختوم بخاتم الفن الذى أوحى بها ، وروح الأمة التى وضعت خطتها وأقامتها) .

وفى سنة ١٧٦٥ ميلادية ، زار قرطبة الغزال الفاسى سفير سلطان المغرب إلى ملك أسبانيا كارلوس الثالث ، وبكى على مسجدها الجامع

(١) كتاب الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال تأليف المرحوم الأستاذ محمد عبد الله عنان الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥ هـ سنة ١٩٥٦ م .

فيقول (ومذ عبرنا هذا المسجد لم تفترلنا عبرة مما شاهدنا من عظمته ، وتذكرنا ما كان عليه عهد الإسلام وما قرئ فيه من العلوم وتليت فيه من الآيات ، وأقيمت به من الصلوات ، وقد تخيل فى الفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلم علينا وتهش إلينا من شدة ما وجدنا من الأسف ، حتى صرنا نخاطب الجمادات ونعانق كل سارية ، ونقبل سوارى المسجد وجداره) انتهى كلام ذلك السفير المغربى .

والعجيب أنه رغم ما هو ظاهر على جدران ذلك المسجد العظيم وواجهاته الخارجية من آثار الإهمال والقدم ، فإنه من يجوز إلى داخل فنائه الشاسع ويتأمل مدخله الرئيسى ، يدرك لأول وهلة أنه يواجه أثرًا من أجل وأبدع الآثار الإسلامية الباقية لذلك فهو رغم تحويله إلى كنيسة نصرانية فإنه مازال الأسبان يسمونه حتى اليوم La Mezquita Algama de Cordoba أى المسجد الجامع فى قرطبة[1] .

(١) كتاب الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال المرجع السابق .

النهضة الثقافية

كيف كانت في مدينة قرطبة زمن الإسلام

قرطبة فى عهودها الإسلامية الزاهرة كانت تحمل مشعل الثقافة والنور واحتلت مركز الصدارة فى تدريس العلوم ، وإشاعة المعرفة بين دول أوربا وأفريقيا وغدت موطن العلماء وموئل الساعين من طلاب العلم ورواد الثقافة والأدب ، وطبقت شهرة مدارسها ومكتباتها الزاخرة الآفاق ونمت فيها العلوم والفنون فبرز منها الكثير من العلماء فى الفقه والحديث والقراءات ، والتفسير واللغة والنحو والكتابة وعلوم التاريخ ، وفى العلوم العقلية والرياضية والفلك والفلسفة والشعر ثم فى علوم الطب والموسيقى ، وغير ذلك من العلوم الوثيقة الصلة بحياة الإنسان .

ولم تمنع التقاليد السياسية تدفق علماء المشرق الإسلامى إلى قرطبة وبلاد الأندلس يحملون معهم علوم العرب وفنونهم ، كما لم تكن الحواجز السياسية أو الحدود الجغرافية لتقف حجر عثرة دون أمانى الأندلسيين فى المعرفة ، الطامحين إلى الإحاطة بعلوم إخوانهم المسلمين المشارقة إذ كان الشرق فى نظرهم مهبط الوحى ومثوى جسد نبى هذه الأمة ﷺ[1] .

مدى تشجيع أمراء الأندلس للعلماء :

كان الأمراء الأندلسيون يشجعون العلماء فيجمعونهم من مختلف الأقطار ويغدقون عليهم العطايا والهبات المجزية مما كان له الأثر المحمود

(١) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى تأليف دكتور جوده جلال ومحمد محمود صبيح مطبعة دار القلم بالقاهرة نوفمبر سنة ١٩٦٢م .

فى إقبال العلماء على الدرس والتحصيل وتشجيعهم على التأليف والابتكار ، وبلغت المدارس الابتدائية من الكثرة بحيث استوعبت جميع أفراد الشعب فلم يبق فيها مكان لأمية أمى بين المسلمين ، فكل مسلم يجيد القراءة ويحسن الكتابة ، وأما التعليم العالى فكان مكانه المسجد الجامع فى قرطبة فتهافت عليه الطلاب من شتى أنحاء البلاد ليس فقط من أسبانيا الإسلامية بل من جميع أنحاء العالم الإسلامى والأوروبى المسيحى على السواء ، وكان يسود الجميع روح المحبة الصادقة والزمالة المخلصة[1] .

نماذج ممن جاءوا لتلقى العلم فى قرطبة :

تؤكد الروايات التاريخية أن من هؤلاء الرواد كان بابا الفاتيكان سلفستر الثانى عشر، فقد ذهب إلى قرطبة أيام أن كان راهبًا ليتلقى العلم فيها على علماء المسلمين، فصار بعد ذلك من علماء البابوات المرموقين فى وسطه المسيحى لثقافته[2].

كذلك قام جورج الثانى ملك إنجلترا وكانت تحت سيطرته بلاد الغال والسويد والنرويج ، وقتئذ بإرسال ابنة شقيقته الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز لتلقى العلم فى قرطبة زمن الأمير هشام الثالث وقد ذكر فى رسالته لأمير قرطبة أنه ما أرسل تلك البعثة إلا بعد أن سمع عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلاد الأندلس فأراد لأبناء الإنجليز اقتباس نماذج هذه

(١) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى المرجع السابق .

(٢) كتاب قرطبة فى التاريخ الإسلامى المرجع السابق .

الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثر حضارة المسلمين وذلك لنشر أنوار العلم فى بلاده التى يحتاطها الجهل من أركانها الأربعة[1] .

المؤثرات البارزة لحضارة الإسلام فى قرطبة :

الحضارة الإسلامية فى بلاد الأندلس تدين فى ظهورها وتقدمها إلى مجموعتين كبيرتين من الناس :

إحداهما :

مجموعة العرب والمفكرين الذين نزحوا إلى أسبانيا الإسلامية عقب موجة الفتح أو بعده .

والمجموعة الثانية :

أبناء الأندلس الذين ولدوا نتيجة المصاهرة والارتباط بالشعب الأسبانى وكان لتلك المجموعة نزعة عقلية جديدة ومميزات وصفات خاصة ليست لأبناء العرب الفاتحين أو القادمين إلى هناك[2]

اتجاهات الحضارة الإسلامية الأندلسية :

هذه الحضارة اتجهت عدة اتجاهات وشملت شتى ألوان المعارف ويمكن تقسيمها إلى قسمين هما الحضارة العمرانية والحضارة الفكرية .

أولاً : الحضارة العمرانية :

فقد تنوعت نواحى العمران التى عنى بها المسلمون بالأندلس ، ففى التجارة عنوا بالطرق والجسور والأسواق وفى الزراعة أدخلوا نظام الرى

---

(١) كتاب دور المساجد التاريخى فى التثقيف العلمى تأليف الأستاذ على محمد الشاذلى الخولى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. المجلد الرابع تأليف الدكتور أحمد شلبى ط خامسة سنة ١٩٧٩م مكتبة النهضة المصرية .

الذى لم يصل أهل أسبانيا إلى مثله من قبل فطهروا الأنهار وشقوا الترع وحفروا الخلجان .

وفى مدينة بلنسية وصلوا الترع بجبال نيفادا التى هى مقر الثلوج المستديمة وبنوا القناطر على الترع لحجز المياه ، وعند ارتفاعها أمام القناطر تسقى أماكن الزراعة المرتفعة وكانت دورة الزراعة بفضل هذه العناية ثلاثية فى نواحٍ كثيرة هناك .

ولكن أروع نواحى العمران بدت فى المنشآت البنائية من قرى وحمامات وقصور ومساجد خصوصًا مسجد قرطبة الجامع وقد تكلمنا عن طرف منها فى مقال سابق[1] .

ثانيا : الحضارة الفكرية :

وتشمل هذه الحضارة ألوان التفوق الفكرى التى انتعشت وازدهرت ومن أهمها :

العلوم الشرعية التى كانت على مذهب الإمام مالك بن أنس ومن الفقهاء المشهورين أبو بكر بن القوطية الذى اشتهر بالفقه والتاريخ .

ومن فقهاء الشافعية عثمان بن أبى سعيد الكتانى وأحمد ابن عبد الوهاب بن يونس .

ومن فقهاء الظاهرية منذر بن سعيد البلوطى ، وعلى بن حزم مؤلف كتاب الإحكام فى أصول الأحكام ، وكتاب المحلى وكتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وهو يعد من أنفس الكتب وأجمعها للبحث المستقصى فى الديانات والنبوات والكتب السماوية وآراء الفلاسفة ، والخلاف بينهم

(١) انظر مجلة الأزهر عدد ربيع الآخر سنة ١٤١٠هـ - نوفمبر سنة ١٩٨٩م .

وبين الملليين ، والرد على منكرى الألوهية ومعتنقى الأديان المخالفة لدين الإسلام من وثنية أو كتابية .

وبيان ما طرأ على معتقداتهم من زيغ وتضليل وما دخل على كتبهم من تحريف وتبديل ، وهو علم لم تعرفه أوروبا إلا فى القرن التاسع عشر[1] .

ونبغ فى علم القراءات بالأندلس أبو القاسم الشاطبى ، الذى عاش فى شاطبة وبلنسية ، ثم انتقل إلى مصر حيث استوطنها وبَعُد بها صيته ، وأصبحت منظومته فى علوم القراءات مرجعا للمشتغلين بهذه الدراسات[2] .

وفى علوم التفسير نبغ هناك كثيرون نذكر منهم : الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرج القرطبى ، ولد وعاش فى الأندلس ثم رحل منها إلى مصر حيث استقر بها ودفن بعد وفاته فى مقبرة بشرق النيل فى مدينة المنيا[3] .

وكذلك الإمام أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلس ، الذى يقول فى مقدمة تفسيره للقرآن الكريم عن الباعث له على تأليفه إنه وجد أن علم كتاب الله ، هو أمتن العلوم حبالاً وأرسخها جبالاً ، وأجملها آثارًا ، وأسطعها أنوارًا ، فأيقن أنه أعظم العلوم تقربا إلى الله تعالى ، فرجا من وراء اشتغاله بهذا العلم أن الله تعالى يحرم على النار فكرا غمرته أكثرُ عمره مَعَانِيهِ ، ولِسانًا مَرِنَ على آياته ومثَانِيهِ ، ونفسًا ميزت براعة رَصْفِه ومبانيه[4] .

---

(١) كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل تأليف الإمام ابن حزم الظاهرى تنشره مكتبة محمد على صبيح وأولاده طبعة بدون تاريخ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المجلد الرابع المرجع السابق .

(٣) كتاب القرطبى ومنهجه فى التفسير تأليف الدكتور القصبى محمود زلط طبعة دار الأنصار بالقاهرة سنة ١٣٩٩هـ - سنة ١٩٧٩م .

(٤) كتاب منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم تأليف دكتور عبد الوهاب عبد الوهاب فايد طبعة سنة ١٣٩٣ - سنة ١٩٧٣م . هيئة المطابع الأميرية .

وقد حمل لواء علم الحديث اثنان من كبار المحدثين أولهما الإمام الحافظ أبو على الحسين بن محمد الغسانى ، ويصفه ابن بشكوال بأنه كان رئيس المحدثين فى قرطبة ، والثانى الإمام الحافظ أبو على الحسين بن محمد الصدفى الذى انفرد بالإمامة فى الحديث فى جميع الأندلس بعد وفاة أبى على الحسين بن محمد الغسانى .

وعلى يدى هذين الإمامين تخرج المحدثون ، أبو بكر غالب بن عطية المحاربى ، والقاضى عياض بن موسى اليحصبى ، والحافظ أبو محمد عبد الله بن على الرشاطى ، والحافظ أبو بكر محمد بن حيدره بن مفوز المعافرى وغيرهم .

وفى علوم اللغة والنحو نبغ كثيرون نذكر منهم الإمام اللغوى أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوس ، وقد كان عالمًا باللغات والآداب ، مستبحرًا فيهما مقدمًا فى معرفتهما وإتقانهما حتى ليمكن القول كما يصفه المقرى : بأنه إمام نحاة الأندلس كما نذكر الإمام النحوى أبو الحسن على بن أحمد بن خلف الأنصارى المعروف بابن الباذش ، ويصفه الإمام ابن عطية بأنه كان من الحفاظ لكتاب سيبويه المبرزين فى النظر فى معانيه وأيضًا ابن مالك صاحب الألفية التى لقيت قبولاً واهتمامًا من الشيوخ والطلاب والدارسين حتى زماننا المعاصر[1] .

وفى علوم التاريخ نبغ علماء أعلام نذكر منهم :

١ – أبو الحسن على بن بسام الذى ألف كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة وهو من أعظم كتب الأدب والتاريخ لأسلوبه المشرق المسجوع .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المجلد الرابع المصدر السابق .

٢ - وأبو النصر الفتح بن محمد بن خاقان الذى ألف كتاب قلائد العقبان وقد ترجم فيه لكثير من رجالات الأندلس .

٣ - وأبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الذى ألف أكثر من كتاب فى التاريخ من أهمها كتاب الصلة[١] .

وأما فنون الكتابة فقد نبغ فيها جمهرة من البلغاء ورجال الأدب ومن أشهرهم :

١ - أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعى المعروف بابن القصيرة ، ويصفه المراكشى بأنه أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق فى البلاغة وكان على طريقة قدماء الكتاب من إيثاره جزل الألفاظ وصحيح المعانى ، دون التفات إلى الأسجاع اللهم إلا ما جاء عفوًا .

٢ - أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبى الخصال ، ويصفه ابن بشكوال بأنه مفخرة وقته وجمال جماعته ، إذ كان كاتبًا بليغًا حسن البيان وأحد رجال الكمال فى وقته ، كما يصفه المراكشى كذلك بأنه آخر الكتاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب[٢] .

وفى فنون الشعر نجد أنها راجت سوقها وقلما كان يوجد عالم أو فقيه لا يقول الشعر ، وكانوا ينظمون الشعر فى أغراض الجهاد والحرب وفى نقد العيوب الاجتماعية ومدح الأمراء ، فمن شعراء الرجال كان يحيى الغزال ، وابن الخطيب ، وابن زيدون والمعتمد بن عباد، والوزير ابن عمار ، وابن خفاجة وابن حمديس ، وعبد الملك بن سعيد المرادى ومما قاله هذا الشاعر الأخير فى مدح الخليفة الحكم المستنصر بالله الأموى .

---

(١) كتاب منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم المرجع السابق .

(٢) المصدر السابق .

ملك الخليفة آيـة الإقبـال وسعوده موصولة بنـوال
والمسلمـون بعـزة وبرفعة والمشركون بذلة وسفال[1]

شعر النساء :

ولقد ظهرت نساء شاعرات من أمثال نزهون الغرناطية ، وحفصة الركونية وأم الهناء بنت عبد الحق بن عطية ، وولادة بنت المستكفى الأموية[2]

كما ظهرت الموشحات والأزجال الأندلسية وكان لها طابعها وسحرها وجمالها وقد برع فيها ، أبو بكر محمد بن عيسى بن قزمان ، وفى ذلك يقول ابن خلدون عنه : إنه أول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية وإن كانت قيلت قبله بالأندلس ، لكن لم يظهر حلاها ولاانسكبت ، واشتهرت رشاقتها إلا فى زمانه وكان لعهد الملثمين وهو إمام الزجالين على الإطلاق[3]

وأما العلوم العقلية والرياضية فقد نهضت فى بلاد الأندلس نهضة عظيمة :

ففى الطب نبغ هناك ، أحمد بن إياس من أهل قرطبة وقد تمهر فى علم الأدوية حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره ، وألف فيها كتابًا جليلاً لا نظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس ، وكتاب جالينوس ورتبه أحسن ترتيب .

---

(١) كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب الجزء الأول صفحة ٣٧٠ تأليف الشيخ أحمد المقرى التلمسانى تحقيق الشيخ محمدمحيى الدين عبد الحميد طبعة المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٩م .

(٢) موسوعة للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المجلد الرابع المرجع السابق .

(٣) كتاب منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم المرجع السابق .

كما اشتهر بالطب بنوزهر من أعيان أشبيلية ، وقد توارثوا هذا العلم جيلاً بعد جيل ، وأولهم أبو مروان عبد الملك ، وسار على نهجه ابنه أبو العلاء وحفيده أبو مروان .

واشتهر من نساء الأندلس بالطب أم الحسن بنت القاضى أبن جعفر الطنجالى ، أجادت فن الطب إذ كانت امرأة واسعة الاطلاع كثيرة المعارف .

ولشهرة علماء الطب المسلمين هناك كانوا يباشرون الطب فى بلاط الملوك النصارى ، وقد استجاب الأمير عبدالرحمن الناصر لرجاء ملك نافار النصرانى فأرسل له طبيبًا مسلمًا عالجه من السمنة المفرطة التى كان يعانيها[1] .

وفى العلوم الرياضية نبغ عباس بن فرناس وكان ذا عبقرية فذة إذ لم يقتصر على معالجة فرع واحد من البحوث العلمية ، بل كان عالمًا فى الرياضة والطبيعة والكيمياء والفلك وهو فوق كل ذلك أول عالم حاول أن يغزو الفضاء وأن يخترع أداة للطيران .

وقد انتهى فى تجاربه فى ميدان الكيمياء الصناعية إلى اختراع صنع الزجاج من الرمال .

وفى مجال قياس الزمن اخترع آلة لقياسه سماها (بالميقاتة) رفعها إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقد نقش فيها الأبيات الآتية من شعره .

ألا إنهـــا للدين خـــير أداة ... إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهـــار ولم تر ... كواكب ليـــل حـــالك الظلمات
بيمن إمـــام المسلمين محمـد ... تجلّت عن الأوقات كل صـــلاة

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المجلد الرابع المرجع السابق .

وله مقطوعة شعرية يمدح فيها العلم ويذم الجهل نذكر منها البيت الآتى :

الجهل ليل ليس فيه نور والعلم فجر نوره مشهور[1] .

ومن علماء الفلك المشهورين إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بابن الزرقيالى ، ويسميه الغربيون Azarchel وهو الذى قدر فترة خسوف الشمس وحدد مدتها ، وابتكر اسطرلابًا حديثًا حدد به البعد بين المجموعة الشمسية والنجوم وكذلك البعد بين الأرض والقمر ، وقد بينت الأبحاث الحديثة أن الفرق ضئيل جدًّا بين ما وصل إليه الزرقيالى وبين ما وصل له العلم الحديث[2]

وفى الموسيقى اشتهر هناك الحسن بن نافع ولقبه زرياب وكان تلميذًا لإسحاق الموصلى فى مدينة بغداد ، وقد اختلف مع أستاذه فرحل منها إلى بلاد الأندلس حيث أحسن أمراؤها استقباله ، ومن ابتكاراته فى الموسيقى أنه زاد وترًا خامسًا على أوتار العود .

ولم يكن زرياب موسيقيا فحسب ولكن كان أبعد من ذلك إذ أبدع من التقاليد ما سيطر على المجتمع الأندلسى ، فزيه أصبح الزى المفضل لدى علية القوم هناك وتسريحة شعره اقتبسها منه الرجال ، وأخذ الناس عنه طريقة إعداد الموائد وتقديم الطعام وأسلوب ترتيب أثاث البيوت وغير هذه الأمور التى هى من شئون المجتمع[3] .

(١) كتاب أندلسيات تأليف المرحوم محمد عبد الله عنان كتاب العربى ١٥ يوليو سنة ١٩٨٨م .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المجلد الرابع المرجع السابق .

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المجلد الرابع المرجع السابق .

وفى الفلسفة نبغ فيها أبو الوليد محمد بن رشد الملقب بالحفيد تمييزاً له عن جده الفقيه ابن رشد قاضى قرطبة الأسبق ، وقد عهد إليه أبو يعقوب يوسف الموحدى بمراكش شرح مؤلفات أرسطو لغموض ترجمتها فقام بما عهد إليه وهى تشمل :

التحليلات الثانية (البرهان) ، والسماع الطبيعى ، والنفس ، والسماء والعالم ، وما وراء الطبيعة ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والأخلاق إلى نيقوماخوس ، والطبيعيات الصغرى (عن الحس والمحسوس) ، والأورغانون (ومعه أيساغوجى لفورفويوس الصورى) ، والحيوان (الكتب التسعة الأخيرة) .

أما مؤلفاته فى الفلسفة فهى :

١ - كتاب تهافت التهافت ردا على كتاب الإمام الغزالى (تهافت الفلاسفة) طعنا فى فلسفة ابن سينا .

٢ - كتاب المقدمات فى الفلسفة من اثنتى عشرة مقالة واتصال العقل الفعال بالإنسان .

٣ - ورسالة فى المنطق[1] .

كما نبغ فى الفلسفة العلامة أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل وأصله من وادى آشى وأشهر مؤلفاته :

١ - رسالة حى بن يقظان وهى تلخيص فلسفى رائع لأسرار الطبيعة والخليقة عرضت من خلال حياة وأعمال طفل ، خلق من بطن الأرض فى جزيرة مجهولة من جزائر الهند جنوبى خط الاستواء .

(١) كتاب أثر المدينة الإسلامية فى الحضارة الغربية تأليف الدكتور مختار القاضى من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢ - رسالة النفس والأرجوزة الطبية المجهولة وقد فقدتا فى محنة سقوط الأندلس بيد الأسبان النصارى[١] .

اللغة العربية كيف صارت لغة التخاطب ولغة العلوم والمعارف والأدب والشعر فى كل بلاد الأسبان :

كانت اللغة العربية هى الوسيلة التى نشرت بها العلوم والمعارف فى تلك النهضة الثقافية ، فأقبل عليها الأندلسيون مسلمين وغير مسلمين يتعلمونها ويجيدونها وأهملوا لغتهم الأصلية ، وبسبب ما لهذه اللغة من جمال وسحر ولما لآدابها الرفيعة من متعة ولذة تهز النفوس ، وتسعد الوجدان انتشرت انتشارًا واسعًا فى أرجاء بلاد الأسبان حتى أصبحت لغة الناس جميعًا .

وفى ذلك يقول دوزى فى كتابة تاريخ العرب فى أسبانيا (هجر أهل أسبانيا اللاتينية)[٢]، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها، وكانوا لايكتبون بغيرها حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك وقال: إننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية باللغة العربية لنتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة، ولايكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتاب المقدس باللغة اللاتينية، وكل شبابنا الأذكياء لايعرفون غير لغة العرب وآدابها، لأنهم يقرءون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب إلى الإعجاب بآداب العرب فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها، وقالوا: إنها لاتستحق عناية قارئ أومستفيد، من أجل ذلك نسى النصارى هناك لغتهم، فلا تكاد تجد فى

(١) كتاب أندلسيات المرجع السابق .

(٢) أى اللغة اللاتينية .

الألف منا واحدًا يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية ، أما إذا أرادوا أن يكتبوا باللغة العربية فإن كثيرًا منهم يكتبون بعبارات بليغة وأسلوب منمق وقد يفوقون العرب أنفسهم فى ذلك حتى فى الشعر ونظم القوافى [1] .

الأدب العربى ومدى تأثيره على أدب الأسبان :

لقد تأثر أدب أهل أسبانيا بالأدب العربى تأثرًا كبيرًا كما تأثرت به معارفهم الفلسفية وفى ذلك يقول المستشرق الأسبانى كوندى (إن أدب أهل أسبانيا مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به ولا شك أن الأسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعارفهم الفلسفية)[2] .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المجلد الرابع المرجع السابق .

(٢) المصدر السابق .

غرناطة
سيدة الأندلس وشعلة الحضارة الإسلامية
خمسة قرون مضت على سقوطها وغروب شمس الإسلام من آخر معاقله في بلاد الغرب

في يوم ٢ يناير من عام ١٩٩٢ ميلادية ، احتفل الغرب الصليبى بذكرى مرور خمسة قرون على إخراج المسلمين من آخر معاقلهم فى غرناطة سيدة الأندلس الإسلامى ومنارة العلوم وشعلة الحضارة الإسلامية الباقية فى أوروبا .

ففى مثل هذا اليوم من خمسمائة عام أى فى ٢يناير سنة١٤٩٢ م سقطت مملكة غرناطة المسلمة، آخر حواضر الإسلام هناك فى يد المسيحيين الكاثوليك الأسبان بعد أن صمدت بمفردها فوق بحر الصليبية المتلاطم والطافح بالحقد والمكر طيلة قرنين من الزمان بعد سقوط غيرها من الولايات والمدن الأندلسية.

الصليبية توحد صفوفها أمام المسلمين للقضاء عليهم :

مما هو ملاحظ ومستغرب فى حركة الفتح الإسلامى لبلاد الأندلس، أن أمراء الفتح رغم اندفاعهم وقوة شكيمتهم وعزيمتهم، لم يعولوا على تطهير البلاد الأسبانية من بقايا القوط والنافارين المسيحيين الذين لجئوا إلى سكنى القسم الشمالى، وخصوصا الغربى منه متحصنين بالمناطق الجبلية وكانوا من بعد سبب أحداث وفتن واضطرابات دائمة، ونواة

القوة النامية المعادية للإسلام والمسلمين ، حتى أمكنهم طرد المسلمين من الأندلس فى آخر المطاف[1] .

وكانت نهاية المؤامرات الصليبية اتحادًا كبيرًا ، ضم أكبر مملكتين كاثوليكيتين مناوئتين للإسلام هما مملكة أرجوان ومملكة قشتالة ، فقد اندمجتا فى اتحاد توجاه بزواج (إيزابيلا) ملكة قشتالة من (فرناند) ملك أرجوان ، وكان الذى يراود الزوجين الكاثوليكيتين ليلة زفافهما هو دخول غرناطة وقضاء شهر العسل فى قصر الحمراء ، ورفع الصليب فوق برج الحراسة أكبر أبراج غرناطة[2] .

كيف كانت الأمور على المستوى الإسلامى ؟

مما يؤسف له أشد الأسف ، بل هو إلى عميق الحزن أقرب أن الخلافات الشديدة دبت داخل مملكة غرناطة بين أبناء الأسرة الحاكمة ، وتم تقسيم المملكة المحدودة إلى قسمين يهدد كل قسم منهما الآخر ويقف له بالمرصاد .

قسم منهما فى العاصمة الجميلة (غرناطة) يحكمه أبو عبد الله محمد بن على أبو الحسن النصرى (آخر ملوك غرناطة) .

وقسم آخر فى (وادى آشى) وأعمالها ، يحكمه عمه أبو عبد الله محمد المعروف بالزغل والعجيب أنه رغم اقتراب جيوش العدو من أرض هذين الحاكمين لم يفكرا فى توحيد بلديهما وقوتهما ضده .

---

(١) كتاب مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس تأليف الأستاذ محمد على قطب صفحة ١٩ طبعة سنة ١٩٨٥ .

(٢) كتاب دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية تأليف الدكتور عبد الحليم عويس صفحة ٥٠ طبعة سنة ١٤١٠ هـ - سنة ١٩٨٩ م .

كيف بدأت الحرب :

كان الملكان الكاثوليكيان ، فرديناند وإيزابيلا ، قد شهرا الحرب على المسلمين قبل ذلك بأعوام واستوليا تباعًا على مالقة أمنع ثغور الأندلس فى شعبان سنة ٨٩٢ هـ – أغسطس سنة ١٤٨٧ م ، ثم على وادى آش والمنكب والمرية فى أواخر سنة ٨٩٤ هـ – سنة ١٤٨٩ م ، ثم على بسطة فى شهر المحرم سنة ٨٩٥ هـ – ديسمبر سنة ١٤٨٩ م .

ثم جاء دور غرناطة آخر معقل للإسلام ، وقد أصبحا على مشارفها فأرسلا إلى السلطان أبى عبد الله محمد بن على أبو الحسن النصرى يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء الزاهرة ، لكن شعب غرناطة كافح عن بلاده إلى آخر لحظة لما دارت الحرب بين المسلمين والكاثوليك الأسبان ، واستمرت مدة عامين يقودها ويشعل الحمية فى نفوس المقاتلين فيها الفارس الإسلامى موسى بن أبى الغسان ، وهو سليل أحد الأصول العربية القديمة التى عرفت برائع فروسيتها وعميق بغضها لأعداء الإسلام .

إلا أن ملكى الأسبان زحفا على المدينة بجيش ضخم مزود بالمدافع والذخيرة الوافرة وهبطوا إلى مرج غرناطة الجنوبى فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ – مارس سنة ١٤٩١ م وضربوا حولها الحصار الصارم ، وأنشأ الملك فرديناند لجيشه فى تلك البقعة الزاهرة مدينة صغيرة مسورة سميت (سانتافيه) - Santa Fe أى الإيمان المقدس رمزًا لحربه الدينية .

وبدأ الفصل الأخير فى الصراع بين المسلمين وأعداء الإسلام هناك ، ولم يك ثمة شك فى نهاية ذلك الصراع وجيوش الأسبان الحاقدة تضطرم حول غرناطة كالموج الزاخر ، وغرناطة البائسة لا قوام لها غير جندها القليل ، وعدتها ومؤنها المحدودة وشعبها المضنى ، ومع ذلك فلم تستسلم

إلى قدرها القاهر قبل أن تستنفد فى اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد ما عرف فى تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة .

فقد خرج المسلمون خلال الحصار لقتال العدو المحاصر مرارًا يهاجمونه ، ويثخنون فى جيوشه، ويفسدون عليه خططه وتدابيره، وكان الفرسان المسلمون يبدون من الشجاعة والبراعة والإقدام ما يثير روعة العدو ودهشته وإعجابه إلا أن العدو الصليبى زاد من تضييقه على المدينة المحصورة بكل الوسائل حتى قطع كل علائقها وكذا مواصلاتها فمازاد من أهوال الجوع والحرمان والمرض بين سكانها المسلمين حتى دبَّ اليأس والقنوط إلى قلوب الناس.

وعندئذ مال حاكم غرناطة أبو عبد الله محمد بن على أبو الحسن النصرى إلى التسليم ظنًّا منه أن ملوك الأسبان المسيحيين الكاثوليك يوفون بوعودهم من ترك المدينة حرة ومسلمة وإن كانت تابعة للأسبان[1] .

شروط تسليم غرناطة :

كانت تلك الشروط فى مجموعها ٦٧ شرطًا أَمَّن فيها الملكان الكاثوليكيان أهل غرناطة على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأعراضهم وأملاكهم وحرياتهم ، وإقامة شعائر دينهم واحترام مساجدهم وفك أسراهم وإجازة من يريد الهجرة منهم إلى بر المغرب وإعفائهم من الضرائب والمغارم سنين معلومة وغير ذلك من أمثال هذه الشروط[2] .

(١) كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام تأليف المرحوم الأستاذ محمد عبد الله عنان صفحة ٢٤٠ – ٢٤٤ طبعة ثالثة سنة ١٩٥٢ .

(٢) كتاب مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس المرجع السابق صفحة ٣٩

حكام الأسبان نكثوا فى تنفيذ الشروط السابقة :

ذلك أنهم لم ينفذوا من الشروط المتفق عليها أى شرط منها ، بل وتمادوا فى تعصبهم الحاقد على المسلمين ورتبوا أنظمة كهنوتية لاضطهاد المسلمين وأسموها بأسماء متعددة كلها مستوحاة من خلفية ذميمة تكره الإسلام وتبغض المسلمين ، ومما زاد فى تعصبهم ما كان يصدره البابوات من المنشورات ضد المسلمين خصوصًا بعد أن تم للأتراك العثمانيين فتح مدينة القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ الموافق سنة ١٤٥٣ ميلادية .

مجلس الدولة الأسبانى يلغى جميع شروط معاهدة التسليم :

عندما هم حكام الأسبان الكاثوليك بخرق نصوص المعاهدة ، واستلاب حقوق المسلمين أغلقوا المساجد وحظروا على المسلمين إقامة شعائرهم ، وانتهكوا عقيدتهم وشريعتهم ثم دعوهم علنًا إلى التنصير واعتناق الكاثوليكية ، فهاج الناس ورفعوا أصواتهم بالتذمر والشكوى وكان مجلس الدولة يرقب تلك الفرصة فاتخذ من التذمر حجة ، ومن خطر الهياج سندًا لذلك أصدر قراره بوجوب اعتناق المسلمين للكاثوليكية ونفى المخالفين منهم[1] .

وما أن ذاع قرار المجلس حتى ذكا الهياج فى غرناطة وفى أحيائها ، حى البيازين ، والبشرات ، وغيرهما كما حاول المسلمون المقاومة ، لكنهم كانوا عزلاً فقام الأسبان بقمع الثورة بكل قسوة وغلظة وكانت جنود الأسبان صارمة شديدة الوطأة ، فمزقتهم بلا رأفة وأعملوا فيهم القتل والنكال وأعدموا قائد الثورة وكان يدعى عبد الله بن أبيه ، وعلقوا رأسه على أحد أبواب قرطبة حيث بقيت معلقة مدة ثلاثين سنة ، وبلغت عدة

(١) كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام المرجع السابق صفحة ٢٢١

من عذب من المسلمين بعد سقوط غرناطة كما ذكره بعض المؤرخين ثلاثة ملايين نسمة ما بين قتيل بالسيف أو محروق بالنار[1] .

ولقد حمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة كثيرًا من المسلمين على الإذعان والتسليم فتنصروا سنة ١٤٩٩ م – سنة ٩٠٤ هجرية .

ورغم كل ذلك فإن فكرة إبادة المسلمين كانت تجثم وراء السياسة الإسبانية فكانوا فى نظرها حتى بعد التنصير خونة مارقين وأعداء للمسيحيين الكاثوليك فى سريرتهم وكل حركاتهم وتصرفاتهم مثارًا للريب والمظنة .

أما سكان المناطق الجبلية فاستطاعوا المقاومة حينا ولكن ملك الأسبان جرد عليهم جموعًا عظيمة من جيوشه فآثروا الخروج من بلاد الأسبان نهائيا ، وطلبوا الإجازة إلى أفريقيا فخيرتهم الحكومة بين أن يعتنقوا الكاثوليكية فى ثلاثة أشهر وبين أن يغادروا البلاد تاركين أملاكهم للدولة فهاجرت جموع كبيرة منهم إلى شمال أفريقيا حيث استقروا فى مدن فاس ، ووهران ، وبجاية ، وتونس ، وطرابلس وغيرها من ثغور أفريقيا الشمالية .

أما من بقى منهم واستسلم إلى الردة والتنصير فكان موضعًا للإرهاق المستمر يردعهم شبح السجن والتعذيب والإحراق لأتفه حجة وأقل بادرة[2] .

نماذج من المراسيم التى صدرت ضد المسلمين هناك :

لقد أصدر عاهلا أسبانيا (فرديناند وإيزابيلا) وقتئذ مجموعة متتابعة من المراسيم تقضى كلها باضطهاد المسلمين وطرد الكثير منهم من بلادهم .

(١) كتاب مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس المرجع السابق صفحة ٤٠ – ٤١

(٢) كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام المرجع السابق صفحة ٢٥٢ .

١ – ففى يوم ٢٠ من يوليو سنة ١٥٠١ م – ٤ من المحرم سنة ٩٠٧ هـ صدر أمر من الملكين السابق الإشارة إليهما يمنع وجود المسلمين فى مملكة غرناطة .

٢ – وفى يوم ١٢ من فبراير سنة ١٥٠٢ م – ١٣ من رمضان سنة ٩٠٨ هـ أصدر ملكا الأسبان أمرًا يحتم على كل مسلم حر بلغ سن ١٤ سنة إن كان ذكرًا ، ١٢ سنة إن كان أنثى أن يغادر مملكة غرناطة قبل أول شهر مايو التالى ، على أن يسمح لمن يريد الخروج أن يتصرف فى ماله وأملاكه على ألا يكون الخروج إلى شمال أفريقيا إذ كانت فى حرب قائمة مع أسبانيا فى ذلك الحين ، وليكن الخروج إلى بلاد أخرى وكل مخالفة للأمر تجعل صاحبها عرضة للموت والمصادرة .

٣ – وفى يوم ١٢ من شهر سبتمبر سنة ١٥٠٢ م – ١٩ من ربيع الأول سنة ٩٠٩ هـ صدر أمر ملكى من ملكى أسبانيا يحظر على الناس التصرف فى أملاكهم قبل مضى عامين ، كما يحظر عليهم أن يغادروا إلا إلى مملكتين هما الأراغون أو البرتغال[1] .

الملك شارل الخامس بعد توليه عرش الأسبان يتقاعس عن إزالة شكوى المسلمين وظلاماتهم :

لما ارتقى إلى الحكم شارل الخامس ويدعونه فى التاريخ (الملك شارلكان) التمس المسلمون فى أسبانيا عدله واستغاثوا به من الاضطهاد وسياسة الخسف والإرهاق ، وذلك على يد وفد بعثوه إليه ليشرح ظلامتهم وآلامهم سنة ١٥٢٦ م ، فأحيلت مطالبهم على محكمة من رجال الدين

(١) كتاب مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس المرجع السابق صفحة ٤٥– ٤٦ .

الكاثوليك والأحبار وقضاة التحقيق ثم أصدرت حكمها الذى يتسم بالقسوة والجور إذ قضى .

بأن عليهم أن يعتنقوا الكاثوليكية ، أو يغادروا أوطانهم فى أجل قصير ، وإلا كان جزاؤهم الموت فى محارق ديوان التحقيق ، وهى تلك المحارق المتقدة بالنيران التى ابتدعها ديوانهم المقدس المشئوم لإعدام فرائسه ترفعًا عن سفك الدماء على حد قولهم كما كانوا يزعمون[1] .

أسقف أشبيلية يزيد من اضطهاده لأهالى غرناطة[2]

فقد حصل ذلك الأسقف فى العام التالى أى سنة ١٥٢٧ م على أمر يحتم على أهالى غرناطة أن يغيروا ملابسهم ولغتهم العربية وعاداتهم وأخلاقهم وأحيط تنفيذ هذا الأمر بكل مظاهر الشدة ، وخول لكل مسيحى أسبانى حق الرقابة على تنفيذه ، وأنشئت فى غرناطة محكمة تحقيق لمعاقبة المخالفين فهبت على الغرناطيين ريح عاتية من التعذيب والقتل ، كما وثبت جماعة من المسيحيين الكاثوليك الحاقدين على الأهالى ، فأثخنت فيهم النهب والسلب وزادت من أعمال الاضطهاد والتعذيب وسفك الدماء والتشريد عليهم .

وعن تلك المشاهد الرهيبة يقول (كوندى) وهو مؤرخ أسبانى مسيحى كاثوليكى فى كتابه تاريخ دولة المسلمين فى أسبانيا (فغدوا – أى المسلمين – إزاء الإرهاب الذى يخضعهم لصولة مطارديهم وما منهم إلا مسكين ومنكود ، وكان منظر المحارق فى غرناطة وقرطبة وكذا أشبيلية وأنين الفرائس تلتهمها النيران تباعًا ، ومناظر المصادرة والنفى والتعذيب المستمر

(١) كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام المرجع السابق صفحة ٢٥٣ .

(٢) كتاب أندلسيات للأستاذ محمد عبد الله عنان صفحة ١٥٥ طبعة يوليو سنة ١٩٨٨ – كتاب العربى .

تملأ نفوسهم رعبًا يحول دون إبدائهم التذمر بالقول ، بل بالإشارة إذ اعتبر ذلك دعوة إلى الثورة)[1] .

ثورة أهالى غرناطة فى عهد الملك فيليب الثانى :

أراد حكام الأسبان استئصال المسلمين كلية من غرناطة وأن تسحق جنسهم وكانوا يسمونهم بالموريسكيين[2] ، وأن تبيد حتى ذكرى حياتهم المجيدة ، وكان فيليب الثانىوقد تولى عرش الأسبان كسلفائه ، يضطرم تعصبًا للكنيسة والكثلكة فذكر له أسقف غرناطة أن الأهالى ليسوا مسيحيين فى سرائرهم .

١ – فهم مازالوا يتكلمون العربية .

٢ – ويكثرون من الاستحمام اتباعا لشعائر الإسلام .

٣ – ومازال نساؤهم يخرجن محجبات .

وعندئذ ألفت محكمة ثانية من الأحبار وقضاة التحقيق لبحث هذه التهم الخطيرة ، إذ كيف يعتبر التكلم بالعربية والاستحمام وحجاب المرأة من المظاهر البريئة ؟

حاول الموريسكيون الدفاع عن أنفسهم لكن لم يصغ إليهم أحد : قالوا إن اللغة والأخلاق والأزياء كلها تقاليد للتربية والعرف ، ولا علاقة لها بالمبادئ الدينية وأن الاستحمام ضرورى للصحة فى الإقليم الحار ، وأن تحجب النساء يرجع إلى مبدأ العفاف والحشمة ، وأن ليس من السهل على

(١) كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام المرجع السابق صفحة ٢٥٤ .

(٢) الموريسكيون لفظ أطلقوه على المسلمين فى بلاد الأسبان فى ذلك الزمان ويعنى المسلمين الصغار .

أناس تكلموا العربية منذ المهد أن يدرسوا اللغة القشتالية ، فيجردوا أنفسهم من كل وسيلة للتفاهم والتخاطب ولكن هذا المنطق البسيط ، لم يقنع ولاة الأمر وأحبار المجلس المقدس فقرر .

١ – أنه إذا بدت امرأة محجبة نزع حجابها .

٢ – وإذا تكلم واحد بالعربية زج به إلى السجن .

٣ – ثم عملت حكومة فيليب الثانى ما هو شروأنكى ، إذ نزعت من الموريسكيين أطفالهم ذكورًا وإناثًا وألقتهم أكداسا فى المعاهد والمدارس الأسبانية العامة .

ولما ثار الأهالى أمرت الحكومة بنفى جميع الموريسكيين من غرناطة[1] .

سياسة ملوك الأسبان وكهنتها كانت تقوم على محو الإسلام وإبادة المسلمين :

لما كان حكام الأسبان ورجال الكهنوت يعلمون تمام العلم بأن المسلم لا يرضى بدينه بديلاً لذلك قننوا سياستهم على إبادة المسلمين ، ومحو آثار الإسلام من بلاد الأندلس وبناء على ذلك صادروا أموالهم ونهبوا ممتلكاتهم وهتكوا أعراضهم وتفننوا فى إذلالهم وتعذيبهم والنكال بهم :

١ – فالكاردينال **خمتيس** أرغم خمسين ألفا من المسلمين على اعتناق الكاثوليكية .

٢ – وجاء بعده **كبير المفتشين** ويدعى (**ألدون : الفونسوماتريك**) كان يأخذ خصومه بأقل شبهة خصوصًا عن المسلمين ، ولم يكن جزاؤهم إلا الإعدام تعذيبًا أو حرقًا[2] .

---

(١) كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام المرجع السابق صفحة ٢٥٤ – ٢٥٥ . وكذلك كتاب أندلسيات المرجع السابق صفحة ١٥٦ .

(٢) كتاب مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس المرجع السابق صفحة ٤٧– ٤٨ .

نماذج من الشبهات التى لاحقت المسلمين حتى بعد إجبارهم على التنصير

كان على كل مسيحى أن يبلغ ما يعلم عن الأمور الآتية :

١ – كل شخص إذا ما قام يمدح دين محمد (ﷺ) ، أو قال إن محمدا عبد الله ورسوله .

٢ – من قال إن يسوع المسيح ليس بإله ، ولم يكن إلا رسولاً أو قال بأن مريم العذراء فيها صفات لا تليق بأم الإله .

٣ – من قام للوضوء أو صلى وولى وجهه شطر المشرق قائلاً باسم الله ، أو لا يعتقد إلا بالله وحده .

٤ – كل من زاول بعض العادات والتقاليد الإسلامية المرعية كأن يحتفل بيوم الجمعة أو يرتدى فى هذا اليوم ثيابًا أنظف من ثيابه العادية .

٥ – من صام شهر رمضان أو تصدق خلاله كذلك من كان لا يأكل ولا يشرب إلا عند غروب الشمس أو إذا تسحر ليلاً .

٦ – كل من أقسم بما فى القرآن أوركع وسجد وتلا شيئًا من القرآن.

٧ – من اتبع قواعد (محمد) الخمس (يعنى أركان الإسلام الخمسة) .

٨ – من قال إن الكعبة هى أول بيت من بيوت الله .

٩ – كل من استغاث (بمحمد) عند الحاجة .

١٠ – كل من ختن أولاده أو سماهم بأسماء عربية أو أعرب عن ذلك .

١١ – من تزوج وفقا لما توجبه شريعة الإسلام .

١٢ – من أوثق أرجل الحيوان قبل ذبحه أو رفض أكل ما لم يذبح .

١٣ – من أنشد أغانى عربية أو سمح بأداء موسيقى عربية .

١٤ – من قال بأنه لا يؤمن بدين المسيحية وأنه لم يتنصر .

١٥ – من قال بأن آباءه وأجداده ماتوا على الإسلام ففازوا برضى الله .

١٦ – إذا غسل الموتى وكفنهم فى ثياب جديدة أو دفنهم فى أرض بِكْر .

١٧ – أو وضعهم فى قبور من الحجر مضطجعين على جنوبهم وأسند رءوسهم إلى حجارة .

١٨ – إذا غطى قبور الموتى بالغصون الخضراء[١] .

الملك فيليب الثالث يأمر بإخراج الموريسكيين كلية من أسبانيا :

ففى عهد ذلك الملك اتخذت أسبانيا الكاثوليكية خطوتها النهائية ، وذلك بطرد الموريسكيين أى المسلمين المتنصرين من جميع الأراضى الأسبانية وتم ذلك فى سنة ١٦٠٩ م – سنة ١٠١٨ هجرية وحشدت السفن لنقل من كان فى الثغور منهم إلى الساحل الأفريقى فنقلت منهم مئات الألوف فى مناظر مؤسية رجالاً ونساء وأطفالاً بعد أن أمهلوا ثلاثة أيام من تاريخ نشر قرار طردهم من أسبانيا[٢] .

وهلك أثناء النقل كثير منهم واستقر معظمهم فى ثغور المغرب وتونس ، أما الموريسكيون سكان الشمال فقد نزحوا إلى فرنسا ، فأذن لهم ملكها هنرى الرابع بذلك على شرط أن يحافظوا على المذهب الكاثوليكى وأن يسكنوا ما وراء الغارون .

---

(١) كتاب مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس المرجع السابق صفحة ٤٩ .

(٢) كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام المرجع السابق صفحة ٢٥٦ وأطلس تاريخ الإسلام تأليف الدكتور حسين مؤنس صفحة ١٩٠ نشر الزهراء الإعلام العربى طبعة أولى سنة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

ويقدر المؤرخون عدد المنفيين من إقليم غرناطة فقط بما يقرب من مائة ألف نسمة وقد صادر ملك الأسبان عقاراتهم وأخذها لنفسه .

ويقول نافاريتى وهو من كبار مؤرخى أسبانيا : إن عدد من نفى من أسبانيا كلها فى تلك العصور يصل إلى ثلاثة ملايين من المسلمين من مجموع سكان البلاد الذى كان يقدر بثمانية ملايين نسمة[1] .

محنة التراث الفكرى العربى بعد خروج المسلمين من بلاد الأندلس :

لما تضاءلت عظمة المسلمين فى أسبانيا ، وانحسرت دولتهم فى مملكة غرناطة الصغيرة لبثت هذه المملكة زهاء قرنين من الزمان مركز التفكير الإسلامى فى الغرب ، ولبثت مستودع العلوم والآداب فى أوروبا وغصت مكتباتها العامة والخاصة بنفائس الكتب والمخطوطات .

فلما سقطت غرناطة أيضًا فى يد أعداء الإسلام سنة ١٤٩٢م كما قدمنا انهارت دعائم هذا الصرح الفكرى العظيم، ولم تمض أعوام أخرى حتى ارتكبت أسبانيا الصليبية جريمتها البربرية الشائنة بتدمير تراث الفكر الإسلامى.

ففى سنة ١٤٩٩ م أمر الكاردينال **خمنيس** مطران طليطلة بجمع جميع الكتب والمخطوطات العربية فى غرناطة ، وتنظيمها أكداسًا فى ساحات المدينة ثم احتفل بإحراقها وزعم ويا للخجل أن عمله هذا هو من أعمال الإيمان ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب من كتب الطب وهبت ، لجامعة (الكالا) أى جامعة القلعة وهى قلعة هنارسى[2] .

---

(١) كتاب مذابح وجرائم محاكم التفتيش المرجع السابق صفحة ٦٨
وكتاب قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام للدكتور توفيق الطويل طبعة أولى صفحة ٨١ نشر الزهراء للأعلام العربى سنة ١٤١٢ هـ – سنة ١٩٩١ م .

(٢) كتاب أندلسيات المرجع السابق صفحة ١٦٩ .

ولقد هلك فى تلك الفاجعة الأخرى معظم تراث الأندلس الفكرى ويختلف المؤرخون فى تقدير عدد المخطوطات العربية التى بادت فريسة هذه الجريمة النكراء ، فيقدرها كوندى المؤرخ الأسبانى بثمانين ألفا لكن بعض المؤرخين يقدرها بأكثر من مليون كتاب ولم تبق معاول التعصب والحقد والجهالة إلا على بقية يسيرة من التراث العربى الإسلامى قبرت فيما بعد فى أروقة قصر الأسكوريال المظلمة حيث أصابها حريق آخر أباد معظمها سنة ١٦٧١ م ويقع هذا القصر فى الضاحية المسماة باسمه على بعد خمسين كيلو مترا من مدريد فى واد عميق تحف به الجبال وكانت حكومات الأسبان المتعصبة تحرص كل الحرص على إخفائها عن نظر كل باحث ومتطلع خشية أن تُبثّ روح التفكير الإسلامى فى أذهان الشعب الأسبانى ، ولبثت على ذلك حتى أواسط القرن الثامن عشر عندما انتدبت الحكومة الأسبانية وقتئذ العالم اللبنانى المسيحى المارونى ميشيل الغريزى ، وكان يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، وعهدت إليه بدراسة ذلك التراث العربى ووضع فهرس جامع له ، وبعد أربع سنوات من الدراسة والتحقيق استطاع أن يخرج الجزء الأول من ذلك الفهرس سنة ١٧٦٠ م باللغة اللاتينية بعنوان (Bibliotheca Arabico Hispana Escurialersis) يعنى (المكتبة العربيـــة الأسبانية فى الأسكوريال) وبدأ بيـــان أسماء الكتب :

بكتب اللغة وعلومها ، ثم الفلسفة وما يتعلق بها ، ثم الأخلاق والسياسة ، ثم الطب والتاريخ الطبيعى ، ثم الرياضة والهندسة والفلك ، ثم كتب الفقه وعلوم الدين والقرآن ثم الآثار المسيحية .

وفى سنة ١٧٧٠ م أى بعد عشرة أعوام كاملة من ظهور الجزء الأول ظهر الجزء الثانى من فهرس الكتب المشار إليها ويشتمل على بيان كتب

الجغرافيا ، ثم كتب التاريخ ، ولم يدون ميشيل الغريزى شيئًا بعد ذلك لكنه اختتم معجمه بثبت جامع لأسماء المؤلفين وأرقام مؤلفاتهم[1] .

تراث العرب فى الأندلس يلفت أنظار الباحثين إليه فى بلاد الغرب :

ففى أواخر القرن الثامن عشر عنى طائفة من الباحثين بتاريخ العرب الأدبى فى أسبانيا فقد قام العلامتان أندريس وماسدى ببحث تاريخ الآداب والعلوم العربية .

١ - فأخرج أندريس كتابه عن (أصول الأدب) .

٢ - ثم أخرج ماسدى مؤلفه الضخم عن (التاريخ النقدى لأسبانيا والحضارة الأسبانية) وهذا الكتاب الأخير هو من أجل المصادر فى تاريخ الحضارة الأندلسية ويتضمن نبذ وروايات شائقة عن خواص المجتمع الإسلامى فى أسبانيا ، ونواحى التفكير الإسلامية فى ذلك الزمان .

٣ - ولقد ظل تاريخ أسبانيا المسلمة كما تعرفه المصادر العربية محجوبًا عن الغرب حتى جاء المستشرق العلامة يوسف كوندى أمين مكتبة أكاديمية مدريد فدرس المصادر العربية من هذه الناحية درسًا مستفيضًا ، وأنفق أعوامًا طويلة فى التنقيب فى مخطوطات الأسكوريال حتى أخرج مؤلفه الشهير (تاريخ دولة العرب فى أسبانيا) فى ثلاثة أجزاء وقد ظهر جزؤه الأول سنة ١٨١٠ م ، وهو وإن كان قد توفى فى هذا العام إلا أن الجزءين الباقيين نشرا فى العام التالى .

ومن كلامه فى خاتمة تاريخه معلقًا على مأساة دولة المسلمين فى الأندلس يقول (وهكذا اختفى من الأرض الأسبانية إلى الأبد ذلك

(١) كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام المرجع السابق صفحة ٢٥٩ - ٢٦٣ وكتاب أندلسيات المرجع السابق صفحة ١٧٠ .

الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير الذى أحيا بهمته وجده تلك الأرض التى أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجدب فأدر عليها الرخاء والفيض واحتفر لها عديد القنوات، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد عرش الخلفاء بسياج من البأس، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس فى مدنه صرحًا خالدًا من الأنوار التى كان ضوؤها المنبعث، ينير أوروبا ويبث فيها شغف العلم والعرفان والذى كان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنبل .

ولكن شيئا لا يدوم فى هذا العالم فإن هذا الشعب قاهر القوط الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون إلى أقصى الأجيال قد ذهب ذهاب الأشباح .

ظهر العرب فجأة فى أسبانيا كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه ، وينشر لهبه فى جنبات الأفق ثم يغيض سريعًا فى عالم العدم ، ظهروا فى أسبانيا فملئوها فجأة بنشاطهم ، وثمار براعتهم وأظلها كوكب من المجد ، شملها من البرنية إلى صخرة طارق ومن المحيط إلى شواطئ برشلونة .

ولكن نسيان الفضائل القديمة وشهوات وأطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب وغيرها من عوامل الاضمحلال قد عملت شيئًا فشيئًا على هدم ذلك الصرح العتيد ، الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد بن الأحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية فلّت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء) ثم يستطرد فى رثائه لدولة العرب فى الأندلس فيقول :

(خرج ملايين العرب من أسبانيا فماذا أنشأ الأسبان مكانهم ؟ لا نستطيع أن نجيب بشيء إلا أن حزنًا خالدًا يغمر هذه الأرض التى كانت من قبل

تتنفس فيها أبهج الطبائع ، إن ثمة بعض الآثار المشوهة مازالت تشرف على هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الآثار ، ومن صميم هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد للعربى المغلوب والانحلال والبؤس للأسبانى الظافر) .

ويشارك (المستشرق لاين بول) فى حملة الرثاء لدولة المسلمين الدارسة فى أسبانيا فيقول :

فى مقدمة كتابه عن العرب فى أسبانيا فيقول (لبثت أسبانيا فى يد المسلمين ثمانية قرون وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوروبا، وأزهرت بقاعها الخصيبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون دون سائر الأقطار الأوروبية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والتاريخ والفلسفة والنشر إلا فى أسبانيا العربية ، فكل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها، وكل مايؤدى إلى رقى باهر وحضارة سامية فاز بها مسلمو أسبانيا.

ذوت عظمة أسبانيا بسقوط غرناطة ، ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإيزابيلا وشارل الخامس وفيليب الثانى وكلومبس لتموت بموتها دولة عظيمة ، ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التحقيق ، وسادت بعد ذلك فى أسبانيا ظلمة حالكة ، وقضى على فنون أشبيلية وطليطلة والمرية وعفت صناعاتها وسحقت المعاهد العامة ، حتى تزول بزوالهـا آثار الإسلام وخربت المـدن الكبيرة وذوت نضرة الوديان الخصيبة فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان ، وذلك مبلغ انحطاط أسبانيا بعد إقصائها العرب)[1] .

---

(١) بتصرف من كتاب مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام المرجع السابق صفحة ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

فهكذا انتهى الفصل الأخير من سقوط دولة الإسلام فى بلاد الأندلس بشبه الجزيرة الأسبانية بسقوط آخر معاقلها فى غرناطة ، واضطهاد حكام الأسبان لأهالى البلاد المسلمين ، حتى يقبلوا تغيير عقيدتهم إلى المسيحية الكاثوليكية ثم تغيير لغتهم وزيهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ومن رفض الإذعان أمروه بالخروج من بلاد الأندلس كلية وإلا حوكم فى محاكم دواوين التحقيق والتى دعيت فيما بعد باسم محاكم التفتيش فيأتى قرارها بقتله وإحراقه .

فسادت بذلك قوانين الغاب ضد المسلمين حيث ارتكبت السلطات الحاكمة ضدهم كما قدمنا أحط أساليب التنكيل والتقتيل بما يفوق التصور ، ويعجز عن وصفه اللسان ، أنزلوه بلا شفقة أو رحمة على الرجال والنساء والشيوخ والأطفال .

وتسوق المقادير العادلة فى زمننا المعاصر الدليل المادى على تلك الأساليب الوحشية التى مارسوها فيما كشف أمره أخيرا فى جنوب أسبانيا على حدود البرتغال فى ساحة كنيسة مدينة (يارنة) ، فقد عثر بالصدفة خلال أعمال الإصلاح بها على مقبرة جماعية دفنت فيها دواوين التحقيق أى محاكم التفتيش الأسبانية آلاف المسلمين ، وقد عثر على جثث أولئك الشهداء مشوهة أو مهشمة أو مقطعة تثوى داخل دهليز تلك الكنيسة المشار إليها[1] .

وبهذا الأسلوب الشائن فى محو الإسلام وقتل المسلمين طويت من بلاد الأسبان صفحة شعب من أمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من

(١) مجلة منار الإسلام محرم سنة ١٤٠٢ هـ – نوفمبر سنة ١٩٨١ م مقال محاكم التفتيش وسراديب الموت فى أسبانيا بقلم الدكتور عبد الرحمن على الحجى .

أعرض حضاراته وعن هذه الفاجعة يقول الفقيه الزاهد ابن العسال من قصيدة له

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الإصماء
كم موضع غنموه لم يرحم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراء
لولا ذنوب المسلمين وأنهم ... ركبوا الكبائر ما لهنّ خفاء
ما كان يُنصر للنصارى فارس ... أيدًا عليهم فالذنوب الداء[1]

(١) كتاب الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية بقلم الأمير شكيب أرسلان – الجزء الثالث طبعة أولى سنة ١٣٥٨ هـ – سنة ١٩٣٩ م صفحة ٥٤١ .

صمود الإسلام في الجزائر
بفضل جهود علماء الإسلام بها

عندما وطئت جيوش فرنسا أرض الجزائر العربية المسلمة واحتلتها سنة ١٨٣٠ م ، قام الكونت (دوبورمون) القائد العام لجيش الاحتلال بوضع الصليب على جامع كتشاوة ، إيذانا بتحويله إلى كنيسة في نفس الوقت الذى رفع فيه العلم الفرنسى على دار الحكومة فى مدينة الجزائر العاصمة[١] .

ولقد كتب الماريشال (بيجو) سكرتير القائد العسكرى لجيش الاحتلال وقتئذ يقول : (إن أيام الإسلام فى الجزائر أصبحت معدودة ، إن مدينة الجزائر لن يكون لها بعد عشرين سنة من إله إلا المسيح ، وإذا كان هناك من يشك بعد فى بقاء هذه الأرض ضمن الملكية الفرنسية ، فمن البديهى أن الإسلام قد خسرها ، وأن العرب لن يكونوا لفرنسا إلا عندما يصبحون نصرانيين ، أو متنصرين[٢] .

ويؤكد الكاردينال لا فيجيرى معارضته للإسلام وحربه للقرآن بقوله : (لقد وجب إعادة بناء الشعب الجزائرى وفصم حياته عن القرآن ، الذى ارتبط به منذ زمن بعيد باستعمال كل الوسائل الممكنة ، ومن جهة أخرى يجب تلقين أبنائه على الأقل مشاعر ومبادئ جديدة ، كما يجب على فرنسا

---

(١) عن مقال العلوم الإسلامية (استطلاع) من كتاتيب ابن باديس إلى جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية نشر بمجلة الأمة القطرية عدد ٤٩ السنة الخامسة – محرم سنة ١٤٠٥ هـ أكتوبر سنة ١٩٨٤ م

(٢) المرجع السابق .

أن تقوم أو بالأحرى تسمح بتقديم الإنجيل ، أو تعمل على طرد هذا الشعب إلى الصحراء بعيدًا عن العالم المتحضر ، وبغير هذا يصبح كل شيء وسيلة لا تفى بالغرض ولا قدرة لها) .

ثم تبين للمستعمرين الفرنسيين الآتى :

١ - أن التبشير النصرانى بين المسلمين هو كالحرث فى البحر لا يؤدى إلى أية نتائج ، ولما اتجه المستعمرون الفرنسيون إلى التبشير الثقافى والسياسى أحبطت أعمالهم أيضًا .

٢ - وقد اعترف بهذه الحقيقة الراهب (كارون) فى كتابه (رحلة فى الجزائر) إذ قال : (إن الأطفال الذين جمعتهم السلطات العسكرية والدينية الفرنسية فى مراكز التنصير يلوذون بالفرار) .

٣ – ويشهد الراهب جيرارد أيضًا على هذا الفشل فيقول : (عندما جئت إلى الجزائر كنت آمل فى تنصير العرب ، ولقد رأيت عددًا منهم يصلون إلى مرحلة التعميد ولكن لم أر أحدًا يثبت أو يبقى على النصرانية) .

٤ – وقد نقل الأمير شكيب أرسلان عن جوستاف لوبون قوله : (إن الأربعة آلاف يتيم الذين رباهم الكاردينال لا فيجيرى فى الديانة المسيحية منقطعون فى علائقهم مع المسلمين ، وتلقوا التربية المسيحية بكل معناها ، ما إن بلغوا سن الرشد حتى عادوا إلى الإسلام دين آبائهم إلا النادر منهم)[1] .

جهود جمعية العلماء الجزائريين :

لكن بفضل جهود جمعية العلماء الجزائريين برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس ورفقائه من المناضلين الوطنيين ، وبفضل من سبقهم

(١) مجلة الوعى الإسلامى العدد ٢٣٤ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٤ هـ – مارس سنة ١٩٨٤ م مقال مكافحة التبشير فى الجزائر للدكتور حسن فتح الباب

من العلماء الرواد على رأسهم الأمير عبد القادر الجزائرى سقط إلى الأبد من سماء الجزائر .

١ - أسطورة الجزائر فرنسية .

٢ - فرية أو أكذوبة أن فرنسا هى الوطن الأم .

٣ - محاولات التبشير النَّصرانى نشر النصرانية والقضاء على اللغة والثقافة العربية والإسلامية .

ثم قامت دولة الجزائر العربية المسلمة .

كما عاد جامع كتشاوة مسجدًا إسلاميا وجامعًا كما كان .